أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الثانية

الأفعى والثعبان

◆ ◆ ◆

■■ الأفعى... والثعبان

ما إن وطئت قدماى شقتى بعد عودتى من رحلة شاقة قادمًا من أقصى صعيد مصر بعد مرافعتى في قضية جنائية مهمة إلا وفوجئت بزوجتى تخبرنى «فيه واحد شكله غير مريح سأل عليك أكثر من مرة طول النهار.. ولسه من شوية سأل عليك.. وكل مرة كنا بنقوله إنك مسافر».

وسألتها: ماقلش عايز إيه؟

فكانت الإجابة: لا.. هو قال لما سألته نفس السؤال.. إنَّه عاوزك شخصيًا فى مسألة مهمة ومستعجلة لأنَّها حياة أو موت بالنسبة له.

وقبل أن أبدل ملابسى رنَّ جرس الباب وفتحت له فإذا بى أجد نفسى وجهًا لوجه أمام رجل تجاوز الخمسين من عمره بقليل.. كان شاردًا مهمومًا تستبد بملامحه الحيرة والقلق والغضب.. عيناه زائغتان كأنَّما تسبحان في فضاء عريض بحثًا عن مجهول.. وجهه تكسوه الصرامة والشدَّة.. الشرر يتطاير

من عينيه المحمرتين اللتين يظهر فيهما الإعياء والسهر.. قسمات وجهه يعتصرها الألم والحسرة والحيرة التي يمتزج بها الحدة.. وبينما أتفرَّس وجهه وأمعن النظر محللاً ملامحه بادرنى بقوله:

- ممكن أدخل.. أنا عايز سيادتك فى أمر مهم وعاجل جدًا.

وسيطر على ذهنى لأول وهلة سؤال.

- ما هذا الأمر المهم؟

فقد عودت نفسى أن ألتقى بالموكلين فى القضايا فى مكتبى فقط، وتلك سنة سرت على نهجها منذ بداية عملى بالمحاماة.. وأخبرته على الفور وأنا أدس بين يديه كارتًا بعنوان المكتب:

- ده عنوان المكتب وأنا منتظرك الساعة الثامنة مساء.

ولم يترك لى فرصة لاستكمال حديثى وبادرنى قائلاً:

- يابيه.. دى مسألة حياة أو موت.. لا تحتمل إنى أنتظر لحد الساعة الثامنة.. لازم أدخل وتسمع كلامى لآخره وأنا متأكد إنني أثقل عليك لكن بعد ما تسمع حكايتى حتعذرنى وأنا متأكد إنك حتقف معايا.

ولم يكن أمامى إزاء إصراره وغرابة ملامحه والفضول الذى استبدَّ بى وشوقى إلى معرفة ما يدور فى مخيلته من أحداث، والسر الذى يريد أن يفضى به إلىَّ. إلا.. أن.. سمحت له بالدخول.

كانت خطواته متثاقلة تنبئ عن حجم المعاناة التى تثقل جسده فجعلته

يسير فى خطوات تكاد تكون مترنحة.

وقبل أن يجلس ليروى هذا الأمر العاجل والمهم الذى قدم من أجله دسَّ يده فى جيبه وأخرج علبة سجائر وأشعل منها سيجارة جذب منها أنفاسًا عميقة ومتلاحقة ثم قام بحركة عفوية بإطفائها وما لبث أن كرر ذلك مرارًا وأنا أرمق تصرفاته وألاحظ تحركاته محاولاً أن أصل إلى مكنون نفسه وما يدور برأسه من أفكار.. وجفَّف عرقه الذى كان ينساب من وجهه كالشلالات التى لا تنقطع المرة بعد الأخرى، خاصة وأننا كنا في فصل الشتاء.. وبصعوبة خرجت الكلمات من فمه وكانت أشبه بطلقات مسدس مكتوم.

قال وعيناه لا تغرب عن دخان سيجارته:

- بصراحة أنا قتلت مراتى وانتابته نوبة من الضحك الهستيرى.. واستطرد وأنا مبسوط وفرحان إنى قتلتها.

وأصابتنى الدهشة وانتابتنى الريبة عما يرتبه هذا الرجل وما الذى يريد منى أن أفعله بعد هذا الاعتراف.

وقبل أن أسأله عن التفاصيل قال:

- أنا قتلتها بالليل.. الليلة دى.. والجثة موجودة فى شقتى.. ومن الصبح وأنا بأدور على حضرتك قبل ما أسلم نفسى للبوليس.. كان لازم أشوف سيادتك الأول وآخذ رأيك إيه اللى أعمله بالضبط.

فرمقته بنظرة تكسوها الدهشة والغرابة ربما راودنى إحساس أنَّه ليس في

وعيه وأنَّ هناك مشكلة في قواه العقلية ولذا كان سؤالى المنطقى.

طيب وإيه المطلوب منى أعمله؟ لماذا لم تتوجه إلى الشرطة فور الحادث وتبلغهم بما حدث.

فأجاب بنبرات كلها إصرار وتصميم:

- أنا لازم أعترف بأنى قتلتها فى الشرطة.. والنيابة.. وأمام المحكمة.. بل وأمام الدنيا كلها.. وده شرطى الأساسى – أنا كل إلى عايزه من سيادتك إنك تحضر معايا عشان أضمن أن كل كلمة من اعترافى تتكتب زى ما هى.. سأعترف بالحقيقة كاملة لن أخفى شيئًا وهذا هو مطلبى الأساسى.. وما أصررت وانتظرت منذ قتلها ليلاً وحتى الساعة السادسة مساء اليوم راجيًا منك أن تجيبنى إلى مطلبى.

كان حديثه يتسم للوهلة الأولى بالغرابة، إذ إنَّ تجاربى في التعامل مع الجريمة أو المجرمين سواء إبَّان عملى في النيابة أو في القضاء أو في المحاماة أن المجرم يلوذ بالإنكار مهما أطبقت عليه الأدلة.. ولكنى أواجه مجرمًا من نوع جديد يصر على الاعتراف كاملاً وبهذه الصراحة والجرأة..

ولا شك أنَّ لهذا الإصرار سببًا لما هو مقرر من أنَّ الاعتراف أمر يجافى الوضع العادى للأمور في أن يقدم الإنسان بسهولة ويسر دليلاً ضد نفسه وهى الفلسفة الجديدة التي غيَّرت وجهة النظر بالنسبة للاعتراف فبعد أن كان الاعتراف سيد الأدلة في الماضى بات دليلاً مشكوكًا فيه لتعارضه مع الطبيعة

البشرية، ومن ثم يجب بحث كافة الظروف والملابسات التي أحاطت بالاعتراف بدقة وبحذر والتي دفعت لصاحبه أن يورد نفسه موارد التهلكة ويضحى ويستهين بحياته وما عاصر وصاحب هذا الاعتراف من دوافع وأسباب خرجت به عن الاقتضاء العقلى والمنطقى.

وبدَّد السكون الذى أطبق على المكان وقطع علىَّ تفكيرى وما أسبح فيه من خيال بحثًا عن أسباب ودوافع هذا الاعتراف صوته الذى انطلق كالقنبلة الموقوتة:

- سأشرح لك القصة من البداية إلى النهاية.. وأترك لك الحكم.. وأنا راضٍ به سواء لى أو علىّ..

إنَّها مأساة فى أقسى صورها.. أنا واثق إنَّك عندما ستسمع مأساتى ستعيش حتمًا معى قصة حياتى وستغفر لى فعلتى وتقدر الظروف القاسية التي أطبقت علىَّ وأحاطت بى من كل جانب ودفعت بى دفعًا الى أن أتحول من إنسان يحب الحياة يرعى الله في أسرته وأولاده وكل من يحيط به وفى كل تصرفاته إلى قاتل.. أنا ضحية.. كل ما أطلبه من كل من يسمع مصيبتى أن يمعن السماع إليها.. وأن يدقّق ويمعن فى فصولها الأليمة.. أن ينفذ إلى أعماقى.. أن يعيش معى أحلامى وآلامى.. ويجعل نفسه مكانى ثم يصدر حكمه بعد ذلك كما يشاء.. وأنا واثق أنَّه سيلتمس لى العذر والمغفرة.

وتذكّرت من كلماته على الفور قولة الشيخ محمد عبده وكأنّه عايش

مأساة هذا الرجل «**خير موارد العدل القياس على النفس**».

بدأ الرجل يتحدث بصوت خفيض مثخن بالجراح والآلام.. ينزف دمًا من أعماقه.. كل كلمة ينطق بها وكأنَّها قطرة دم تنزف من قلبه الجريح وجسده الذى يصرخ ألمًا.

وبدأ الرجل وهو مازال يدخن السيجارة تلو الأخرى بنهمٍ وشراهةٍ ولا تغرب عيناه عن الدخان المنبعث منها وكأنَّه يرى فيه شريطًا لقصة حياته.

قال الرجل فى لوعة وأسى وحسرة:

- أنا من أسرة فقيرة.. تفتحت عيناى على الحياة ووجدت أمامى أبًا معدمًا على باب الله.. وكبشة من الأشقاء.. لم أشأ أن أزيد من أعباء والدى وحمله الثقيل.. كان لابد أن أنزح من بلدتى بإحدى قرى الصعيد إلى القاهرة بحثًا عن الرزق.. ووجدت ضالتى فى إحدى الورش التى يمتلكها رجل عجوز كهل ليس له أولاد.. وهب حياته لتلك الورشة التى تصنع الأحذية.

- كان وحيدًا فى الحياة بعد وفاة زوجته.. واحتضننى الرجل.. وعاملنى كما لو كنت ابنا له.. لم يبخل على بشىء.. علمنى من الصنعة وفن التعامل مع الزبائن الكثير.. وفجأة استبد المرض بصاحب الورشة وأقعده طريح الفراش.. لم أنس جميله وفضله ومعروفه بالنسبة لى وكيف أنَّه اعتبرنى بمثابة ابن له ليس بالكلام ولكن بالعمل.. قمت بإدارة الورشة بكل جد وأمانة وإخلاص كما لو كان موجودًا.. وكان سعيدًا وأنا أدوام على علاجه وألبّى كل

طلباته وهو فى مرضه الأخير.. لم أبخل عليه بشئ كنت ابنًا لـه بكـل مـا تعنيـه البنوة..

وقبـل أن يلفـظ أنفاسـه الأخيـرة قـال لى آخـر كلماتـه وهـو فى حشـرجة الاحتضار:

«يابنى.. انت فعلا ابنى.. أنا لو كان لى ابن ما كانش حيعمل معايا كده ولا يقف بجانبى ولا يراعى مصالحى أكثر منـك.. إنـت مخلـص وتسـتحق كـل خير.. أنا كتبت الورشة باسمك.. وحلال عليك.. وده عقد بيع منى لك».

ثم أسلم الروح.. وفارق الحيـاة ويـده ممـدودة إلىّ يسـلمنى عقـد البيـع الصادر منه لى.. مسجلاً فى الشهر العقارى.. عشت بعدها أيامًا لا أصـدق مـا حدث وكأنّه حلم جميل لا أريد أن أصـحو منـه وأنـا أدعـو لـه دائمًـا بالرحمـة والمغفرة.

- لقد ابتسم لى القدر ابتسامة عريضة ما كانت تخطر لى ببال أو حسبان.. وتفتحت أمامى أبواب السـعادة والـرزق عـلى مصـراعيها.. وقمـت بـإجراء تعديلات بالورشة وتحديثها وتطويرها بأحدث الماكينات.. وكنت دائمًا على صلة عميقة مع الله، أتقى الله وأخافه وأرعاه في كل خطوة أخطوها أو تصـرف أقوم به وأفاء الله علىَّ من رزقه الواسع، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

- ومرَّت الأيام حتى كان ذلك اليوم الذى التقيت بها.. فتـاة تحضـر إلى الورشة لتشـترى بعـض الأحذيـة النسـائية لتتـاجر فيهـا «دلالـة»، وسـلّمتها

الأحذية.. وظلَّت تتردد مرات كثيرة.. كانت أمينة وصادقة وجادة فى معاملاتها.. ومع مرور الأيام بدأنا نتجاذب أطراف الحديث وبدأت تقصّ علىَّ صراعها مع الفقر وكفاحها من أجل الإنفاق على أسرتها، فقد توفى والدها وترك لها «كوم لحم».. إخوتها الصغار الذين لا تنقطع مطالبهم.. كان عليها أن ترعاهم ولا تتركهم فريسة لذئاب الحياة.. ولمست كلماتها قلبى خصوصًا أنَّ كفاحها فى الحياة صورة كربونية من كفاحى وحياتى.. أعجبنى فيها الصدق والأمانة ورغبة التحدى لكل العقبات التى تقابلها.. كان حديثها فى كل مرة مؤثرًا.. لمست كلماتها قلبى.. أحدثت به هزّة عنيفة.. كان «الفولت» العاطفى بينى وبينها عاليًا.. وملكت علىَّ عقلى.. وتربعت على عرش فؤادى.. وكان لابد أن أتوج هذه العلاقة بإتمام نصف دينى.. وتزوجنا عن حب ملأ قلبينا.. وقد امتلأنا إصرارًا وعزمًا على أن نضع يدينا معًا ونقتحم المستقبل سويًا وأن نحطم أسوار الفقر الذى أحاط بكل منا في بدء حياتنا.

- ومضى بنا قطار العمر، كانت نعم الزوجة المطيعة التى لا همَّ لها غير الاهتمام ببيتها وإسعاد زوجها وأولادها.

- عشت معها أحلى سنوات عمرى والتى أثمرت عن ابنة وثلاثة أولاد وفيلا نقطن بها في إحدى مناطق الجيزة الراقية.. وانطلقت سفينة حياتنا تمخر أمواج الحياة والأسرة جميعًا تنعم بالسعادة وترفل فى الأمان حتى كان ذلك اليوم المشئوم الذى تعرَّضت فيه مسيرة السفينة لموجة عاتية عصفت بكل شىء..

- شاء القدر أن يقطن شاب إحدى شقق العقار المواجه لفيلتى وذاع بين أهل الحى أنَّه طبيب يعمل فى منطقة قريبة وأنَّه يسافر يوميًا إلى المستشفى الذى يعمل به.. كان حلو الكلمة، عذب الحديث، حتى أنَّ الجميع أعجبوا به وأحبّوه من أعماقهم.

- ورغم حديث أهل الحى عنه وعن مواقفه النبيلة معهم وتفانيه فى علاجهم ورفضه تقاضى مليمًا من أي منهم.. نظير علاجه.. بل فى بعض الأحيان كان يحضر لهم الدواء من جيبه الخاص.. لم تكن تربطنى بهذا الشاب أى علاقة.. كذلك زوجتى وأولادى.. كان البيت بالنسبة لأسرتى بمثابة القلعة الحصينة التى تحمينا وليس من حق أى أحد أن يقتحمها علينا.

- وفى ليلة مشئومة أصيبت زوجتى بآلام فى البطن.. كان الوقت متأخرًا من الليل، وطلبت من أحد الجيران أن يدلنى على طبيب قريب فأرشدنى على الفور على ذلك الطبيب الذى حضر معى، وقام بالكشف على زوجتى وأعطاها العلاج الذى سكَّن آلامها وطلب منها المداومة عليه لمدة أسبوع كان يتردَّد خلاله لمتابعة علاجها وإعطائها الحقن العلاجية في المواعيد المحددة حتى كتب لها الشفاء واستعادت عافيتها مرة أخرى.. وشكر له جميع أفراد الأسرة كياسته وحسن اهتمامه ومجهوده الذى رفض أن يتقاضى أي أجر عنه معللاً أنَّ حق الجيرة يفرض عليه ذلك.

- واعتقدت أنَّ الأمر قد انتهى عند هذا الحد.. وكانت المفاجأة بعد

فترة قاربت ثلاثة شهور من شفائها.. وبعد عودتى من الورشة فوجئت بزوجتى تقطع حديثًا جادًا كنا نتحدث فيه وتشيد بهذا الطبيب ولم تكن هذه المرة الأولى بل إنَّ هذه الإشادة سبقتها إشادات أخرى على مدار الأيام السابقة كانت تسرد محاسنه وتتغنَّى بمهارته وأنَّه طبيب ماهر وله الفضل فى إنقاذ حياتها.. وانتابتنى الدهشة واستبدت بى العصبية.. لماذا كل هذا المديح؟ ما سبب هذا الإطراء؟ ما سر اهتمامها به وبحثها عن أحواله وجمعها كل هذه المعلومات عنه وإصرارها على تعقبها.. لكنَّها هدأت من نفسى وابتسمت ابتسامة فاترة وهى ترد فى صوت هامس، هو فعلاً شاب أمور.. وحلو.. ودكتور شاطر وله مستقبل وزادت عصبيتى التى كادت تصل إلى الانفجار والتماسك معها لأول مرة منذ زواجنا، وإذا بها تنفجر فى الضحك المتواصل مما زاد من ثورة غضبى وانفعالى واستطردت قائلة وهى مازالت تواصل ضحكاتها:

«يا رجل عيب.. إنت بتغير منه.. ده زى ابنك.. إنت ناسى إن بنتك عروسة على وش جواز.. ورمقت فى عينى شيئًا من الارتياح بدَّد بعضًا من الغيظ المكتوم والثورة التي استبدت بى».

- واستمرت فى الحديث:

«ده جاى يطلب ايد بنتك.. عايز يتجوزها علشان كده كان لازم قبل ما أقولك أعمل تحريات سريعة عنه كل اللى سألته عنه من الجيران أكد أنَّه شاب وطبيب ممتاز وله مستقبل كبير».

وتبددت ثورتى واعتلتنى فرحة جارفة نسيت في غمرتها كفاح وتعب السنين السابقة وأحسست لأول مرة أنَّ ولادى كبروا وأنَّ بنتى الكبيرة بقت عروسة.. وقلت لها:

- مادام انتى وبنتك وإخواتها موافقين عليه وعاجبكم على بركة الله.. أنا موافق.

- ولم تنه الحديث معى قبل أن تعاتبنى عتابًا وصل إلى حد التأنيب على سوء ظنى وهى تقول فى خفة ممزوجة بالرقة:

- أنا زعلانة منك.. انت مخك راح بعيد قوى.. بقى بعد العشرة دى كلها ممكن عقلك يسرح وتفكر أفكار وحشة زى دى.

- وضحكت إلى حد القهقهة وهى تسمع منى ما يؤكد حبى لها بلا حدود وأنا أقول بنبرة تنطق حبًا وحنانًا وثقة.

- الرجل اللى يحب بيته ومراته لازم يغير عليهم.

- وضحكنا سويًا ملء قلبينا وإن شئت لقلت ملء قلبى، فقد كان قلبى مملوءًا حتى آخره بحبى لزوجتى وأولادى لا موضع فيه لأى شئ آخر.

- وتمت خطوبة ابنتى لهذا الشاب في جو رومانسى شاعرى حضره أفراد الأسرة والأقارب والأصحاب.. كان كلامه حلوًا وحديثه عذبًا جذابًا مقنعًا ينفذ إلى القلب.. وأحسست بالسعادة تغمر ابنتى عبر هذه الخطبة كانت

معجبة به كل الإعجاب، كانت عيناها تنطق بذلك وتفضح الحب الصادق القوى الذى نفذ إلى قلبها.. فقد رأت فيه نموذجًا لفتى أحلامها وصورة مشرقة لزوج المستقبل وارتوت من أحاديثه العذبة المنمقة التي تنطق بالحنان والحب الرومانسى الجميل.

- ومرَّت الأيام وفجأ تبدلت أحاسيس ابنتى.. تغيَّرت إلى النقيض.. باتت لا تطيق صورته وتنفر من لقائه وتتأذى لمجرد سماع اسمه.

- وواجهتها بهذا التحول فقررت أنَّها أصدرت قرارًا لا رجعة فيه بفسخ هذه الخطبة وأنَّها اكتشفت أنَّه لن يكون الزوج المناسب لها وأنَّه مخادع وكاذب.

- وحاولت معها جاهدًا مرات عديدة أن أعرف سرّ هذا التحول المفاجئ وأسبابه ودوافعه ولكن فى كل مرة كانت تجهش فى البكاء وأحسست أنَّها تخفى داخلها سرًا دفينًا تحتفظ به لنفسها ولا تريد أن تبوح به وأنَّ هذا السر من الجسامة والفداحة والقوة التي حطَّمت ودمَّرت هذا الحب.. بل إن ما زاد الأمر حيرة وغرابة أنَّها تركت المنزل وأقامت مع جدتها وأصرت على عدم العودة حتى تؤكد لنفسها وللجميع أنَّها ما عادت راغبة في مجرد سماع اسمه أو حتى مجرد الإقامة معنا في المسكن لمجرد أنَّه يسكن في الشارع ذاته.. وحاولت جاهدًا أن أعرف من زوجتى سر ما حدث.. ولماذا هذا التحول إلى النقيض من الحب في أعلى قممه إلى الكراهية في ذروتها.. وبدلاً من أن تفك رموز هذا الطلسم كانت إجاباتها غير شافية ولا

مقنعة..

- زادنى صمت الأم حيرة على حيرتى ودهشة أكثر من دهشتى لهذا التحول المفاجئ فى تصرفات ابنتى وإصرارًا على معرفة الحقيقة خاصة وأنَّ تعليل الأم لما حدث كان غير مقنع مرة تبرر ذلك بقولها: «عين وصابتها» ومرة أخرى إنَّها محسودة إلى غير ذلك من التبريرات الواهية غير المقنعة أو أنها بعد فترة لازم حتعقل.

- ومرَّت علىّ أيام وكأنَّها الدهر وأنا أصارع أشباحًا من الخيالات والأوهام والافتراضات التي كادت تحطم رأسى من كثرة التفكير، إذ فوجئت بخطاب يصلنى على الورشة وبمجرد أن قرأت سطوره حتى أصبت بدوار وترنَّحت من فرط هول كلماته وتماسكت حتى لا أسقط على الأرض من فرط ما جاء به.. «مراتك يا محترم على علاقة مع عريس ابنتك»!! ووقعت عيناى على صورة كانت مع هذا الخطاب لحرمى المصون وهى ترقص مع عريس ابنتى في أحد الأندية الليلية.

- وفركت عيناى وأنا أتأمل الصورة وقتها.. أدركت سر التغير المفاجئ لمشاعر ابنتى وكيف تبدَّلت من الحب لهذا الطبيب إلى الكراهية المفرطة ومن الاعتزاز به إلى نبذه والنفور منه واحتقاره، وكيف أنَّها آثرت أن تقبر مشاعرها.. تدفن أحاسيسها.. تتعذَّب فى صمت.. تترك البيت التى عاشت فيه منذ مولدها حتى لا ترى خيانة أمها..

وتحاملت على نفسى وبدأت أفيق من أثر الصدمة التى قرعت رأسى وأنا

أطوى هذا الخطاب والصورة فى جيبى.

- وأسرعت إليها وعرضت عليها الخطاب القاتل والصورة المدمرة.

- نعم كان خطابًا قاتلاً فقد كان بمثابة السكين التى ذبحتنى.

- كانت الصورة مدمرة كالقنبلة التى تفجرت فمزقتنى إربًا إربًا كان علىَّ أن أربط الخيوط المفككة بعضها مع البعض الآخر وأن أتيقن الإجابة عن السؤال الحائر الذى أشقانى وحيّرنى عن سر ترك ابنتى للمسكن.

وبدأت أتحسس الأمر.. وعلمت من الحىَّ أن حكايتها وسيرتها السيئة على لسان الجيران.. ومما زادنى ألما أنَّى آخر من يعلم بهذه العلاقة..

كنت كالمجنون الذى لا يدرى ماذا يفعل.. كان لابد أن أسترجع صوابى وأن أفرمل عصبيتى وأعالج الموضوع بحكمة وروية حرصًا على أولادى الطلبة بمختلف مراحل التعليم.. ما ذنبهم؟ وقد ابتلوا بأم أفعى ماكرة.. لم تجد أحدًا تلدغه سوى زوجها فى شرفه وأولادها فى كرامتهم.. لقد جمعت الأنانية مع الخيانة بكت كثيرًا وزرفت دموع التماسيح بعد أن واجهتها بالخطاب والصورة وهى تعترف بأنَّها نزوة.. وقفت عند حد الإعجاب المجرد به ولم تتعد ذلك.. إنَّ شرفه مازال مصانًا ويجب ألا تأخذه أفكاره وألا يسبح به خياله إلى أبعد من ذلك.

وضغط على فكره وأوقف عقله أمام هذه الدموع المنهمرة والكلمات المعسولة وأنَّها لا تستطيع أن تستغنى أو تعيش بعيدًا عنه ولم تنس حبه لها

طيلة السنين الماضية.. كان عليَّ أن أصدق.. أن أقنع نفسى بكلماتها التى تشدقت بحبها لى وأنَّها لن تفرط فيه حتى لو فرط فيها.

وهداه فكره بعد أن استسلم لرأيها.. وأقنع نفسه على مضض بهذا الاستسلام.. بعد أن أوقف عقله ومنطقه.. أن يترك المسكن الذى عاش فيه أحلى أيام حياته هو وأولاده هربًا من حديث الناس وبعيدًا عن نظراتهم القاتلة له، واستأجر شقة أخرى مفروشة في عمارة فاخرة بشارع الهرم لحين إعداد مسكن جديد.

- كان يوم عيد ميلادها عندما قرر أن يحتفل معها به بمفرديهما ليعيدا ذكرى أيام الحب ولياليه والإخلاص بينهما.. واشترى «تورتة» وهدية ثمينة احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة إلى قلبه.. ووضع الشمع المضىء رمزًا لسنها، فقد أتمت أربعة وأربعين عامًا.. وتوجه إلى غرفة الاستقبال استعدادًا للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة، فقد كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً.. كانت فى الحمام عندما وقعت عيناه على دبلتها.. أمسك بالدبلة ليحتفظ بها لحين خروجها من الحمام ليلبسها إياها تفاؤلاً ببدء عام سعيد وعهد جديد وتسمَّرت عيناه أمام الاسم المنقوش على الدبلة.. ليس اسمه.

يا للمصيبة!

إنَّه اسم الطبيب.. كاد يصاب بالشلل وهو ينتظر خروجها من الحمام علَّها تفسّر له سر وجود اسم هذا الطبيب على الدبلة التى تلبسها.

كان يريد تفسيرًا حتى ولو كان كذبة جديدة كتلك الكذبة الكبرى التى صدقها من قبل.

- وخرجت من الحمام وقد تحامل على نفسه وتظاهر بالهدوء وهو يقول:

- كل سنة وانت طيبة أنا منتظر خروجك من الحمام علشان نحتفل مع بعضنا بعيد ميلادك ونطفى الشمع مع بعض.

- أحسَّ بالحرارة وقد ماتت فى نبرات صوتها وهى ترد ببرود:

- وانت طيب.

- ولم يطق الصبر أكثر من ذلك.. واجهها بالدبلة.. وكانت القارعة عندما ردَّت عليه بحدة ممزوجة بالبجاحة والفجور.. نعم أحبه.. لقد سكن قلبى واحتله كاملاً فما عاد فيه مكان لغيره.. وجدت معه أنوثتى التى افتقدتها طيلة السنوات الماضية وأنا حبيسة بالبيت لا أفارقه.. أعمل فيه كالخادمة من الصباح حتى آخر الليل.. سمعت منه أعذب الكلمات وأحلى عبارات الحب.. كانت كالقيثارة التى تنشد لحنًا عذبًا يهزّ كل كيانى.. وبصراحة فأنا لا أطيق البعد عنه ولو للحظة واحدة.. صورته الباسمة أمام عينى ولا شئ سواها فى صحوتى ومنامى.

- لحظتها لم أشعر بنفسى فقدت وعى.. لم أدر ماذا أفعل ولم أتمالك نفسى وأنا أمسك بالسكين التى كنت أحضرتها من المطبخ لتقطيع «التورتة»

فغرستها فى قلبها.. ذلك القلب الذى لم تهزّه عشرة السنين ولم تحرّكه غريزة الأمومة وانطلق عابسًا تاركًا كل هذه القيم بحثًا وراء لذة آثمة.

ولم أتركها سوى جثة هامدة وسط بركة من الدماء وأغلقت عليها الباب.

كان هذا هو حديث الرجل لى وهو يدخن فى شراهة ويتحدث بعصبية لا حدود لها يروى مأساته لى.

تعاطفت مع الرجل ورقَّ قلبى لمأساته، ونسيت فى غمرة الانفعال معه ومعايشته قصته مع الخيانة والأنانية وكيف كان كريمًا مع زوجة أسلمت نفسها لملذاتها المحرمة وباعت جسدها رخيصًا بلا ثمن للشيطان.. نسيت متاعب كل اليوم وانتقلت معه إلى قسم الشرطة المختص، حيث أبلغ واعترف بما حدث وانتقل رئيس المباحث إلى الشقة، حيث وجد جثة الزوجة «والتورتة» والشمع والدبلة.

وقام رئيس المباحث بالتحرى فأكد الجيران خيانتها، وأكد البعض أنَّه نصحها فلم يؤثر فيها النصح ولم يجد إلى عقلها سبيلاً بل إنَّ ابنتها أكدت تلك العلاقة الآثمة بين أمها وبين خطيبها.. وأنها نصحتها أكثر من مرة بالابتعاد عن هذا الشيطان وأن تعود إلى طريق الهداية والرشد حفاظًا على زوجها وحماية لأبنائها.. ولكن غواية الشيطان كانت أكبر واستسلامها لشهواتها كانت أعمق من أن تستجيب لصوت العقل والحكمة والدين وأن تسير فى طريق الهداية واختارت سكة الندامة ورفضت طريق السلامة وقالت ابنتها

إنها كانت بصدد قتل أمها.. وإنها فكرت فى ذلك كثيرًا لتثأر لشرف أبيها وكرامة أسرتها.. ولكنَّها ترددت أكثر من مرة خوفًا من الفضيحة.

وتمت إحالة المتهم إلى محكمة الجنايات بتهمة القتل العمد.. كان السكون يخيم على قاعة محكمة الجنايات عندما قطعه صوت الحاجب.

- محكمة.

ونودى على المتهم.. وسأله رئيس المحكمة فأصرَّ على الاعتراف وأنَّه قتلها عندما فاجأته وأعلنت له فى وقاحة وتبجح وبلا استحياء أنَّها على علاقة آثمة بالطبيب وطلبت منه أن يتركها كى يغوصا معًا فى مستنقع الرذيلة الذى آثرا السقوط فيه.

وبدأت دفاعى دفاعًا عن المتهم مستهلاً مرافعتى بمقولة الإمام محمد عبده «إنَّ خير موارد العدل القياس على النفس».

وطرحت سؤالاً يفرض نفسه في منطق الدليل في هذه القضية هو:

- لو أيًا منا ساقه قدره الأليم وحظَّه العاثر فى أن يعيش فصول هذه المأساة التى عاشها المتهم.. فماذا هو فاعل؟

- إنَّ المجنى عليه الحقيقى وبحق فى الدعوى الماثلة هو هذا الزوج الطيب المسكين الذى تلقَّى طعنة غادرة فى شرفه.. فى كيانه.. فى عرضه أمام نفسه.. أمام جيرانه.. أمام أولاده.. أمام الحى الذى عاش فيه.. كانت كفيلة بأن تجهز عليه.. تحطّمه.. تقضى عليه قضاء مبرمًا.

- لكنَّه خضع لصوت العقل وآثر الحفاظ على أسرته فى محاولة يائسة أن يبقى هذا الصرح الذى أعملت فيه الأم معاول الهدم بلا هوادة.. على رأس زوجها وأولادها بلا شفقة ولا رحمة بعد أن أسلمت نفسها لغواية الشيطان.

- لم يتسرَّع الزوج بالقصاص منها أو من الطبيب رغم وجود الدليل الدامغ معه على خيانتها بعد أن تلقى خطابًا يفضح هذه العلاقة وبعد أن أصبحت سيرتها وفضيحتها على كل لسان فى الحى.. كان بوسعه أن يهدم المعبد على من فيه ويدفن الجميع تحت أنقاضه، ولكنه آثر أن يحافظ على هذا الصرح الذى تعب وجدَّ وشقى حتى شيَّده صدق معسول قولها أو أقنع نفسه بتصديق قولها علَّها تصحّح من سلوكها المعوج.. ذكَّرها بأبنائها الذين يدرسون فى الجامعات وأنَّهم سيتخرجون فى الجامعة وكيف أنَّ سلوكها المعوج سيكون نقطة سوداء فى الرداء الأبيض الذى حرص دائمًا أن يكون ناصعًا.. ترك الحى الذى عاش فيه والفيلا التي بناها بعرقه وكفاحه واستأجر شقة بمكان بعيد كى يبتعد بها ويبعدها عن هذا الطبيب.

- ولكنَّها لم ترتدع.. أصمت أذنيها.. وأغلقت فكرها وداست على ضميرها وابتعدت عن كل نصيحة واختارت طريق إبليس.

- ومن هول ما كشفت عنه التحقيقات أنَّه لم يكن طبيبًا.. كان أفاقًا.. نصابًا يبتز أموالها واعتاد ذلك مع غيرها اللائى ضعفت نفوسهن أمام غواية الشيطان.. وكانت –مع الأسف– لا رحمة لها فى الأرض ولا فى السماء..

كانت تعلم ذلك جيدًا وأدخلته البيت ليخطب ابنتها وهى تعلم ذلك جيدًا ليكون إلى جوارها عابثة غير عابئة حتى بعد أن تأكدت ابنتها من خيانتها.. لم تفق من غفلتها ولا أنانيتها.. لم تتحرك أمومتها وهى ترى ابنتها تتعذَّب.. تترك البيت حتى لا ترى الخيانة فى عيون أمها ليلاً ونهارًا.. ووصلت بها البجاحة والتدنى منتهاها عندما فاجأت الزوج معترفة بخيانتها.. كان يقدم لها الحب فى عيد ميلادها فقدَّمت له الخيانة فى أحط صورها وأخزى ملامحها.

واستطردت فى دفاعى:

- أنَّ المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات والتى جعلت عقوبة الجنحة لمن يقتل زوجته وشريكها وهما متلبسين بجريمة الزنا تنطبق على المتهم فى الدعوى الماثلة.. فما هو معنى التلبس؟ التلبس لا يعنى المشاهدة بالعين.. لا يقتضى أن يفاجأ الزوج بوجود زوجته مع خليلها فى وضع الرذيلة، ولكن التلبس يدرك بأى حاسة من حواس الإنسان.. فما الفرق فى أن يدرك الصورة ببصره أويدركها تخيلاً بعد أن سمعها بأذنيه.. فى أن يسمع زوجته وهى تعترف أنَّها تخونه بين أحضان رجل آخر لا تستطيع أن تنساه وأن صورته لا تفارق عينيها.. إنَّه التلبس بعينه.. وقعه على نفسه وأثره عليها تمامًا كما لو كان قد شاهدهما معًا متلبسين بالجريمة.. الغاية التى تغيَّاها القانون والحكمة التي من أجلها شرع هذا النص وهبط بعقوبة القتل من الجناية إلى الجنحة واحدة فى الاثنين. فما تغيَّاه المشرع والعلَّة التى ارتسمت فى وجدانه وهو يجعل عقوبة القتل فى المادة ٢٣٧ عقوبات.. عقوبة الجنحة هى ذلك الشعور

المفاجئ غير المتوقع من الزوج عندما يفاجأ ويتيقَّن من أنَّ زوجته بين أحضان رجل آخر.. على نحو يفقده صوابه وقدرته على التفكير العاقل المتأنى في روية وهدوء أمام هول ما رأى أو سمع وهو ما تحقق وتأكد منه عندما سمعها وهى تعترف بالخيانة وتؤكدها بلا حياء أو خجل.

واستطردت فى دفاعى متسائلاً السؤال الذى تساءلته فى بداية دفاعى:

- لو أيًا منا قدِّر له أن يواجه الظروف ذاتها التى واجهها المتهم.. أن يبتلى بزوجة خائنة تجاهره بالخيانة لا ترعى حق الزوجية والواجبات التي تفرضها الأمومة.. فماذا هو فاعل غير ما فعل المتهم؟

ورفعت الجلسة للمداولة..

فى هذه الأثناء ونحن ننتظر صدور الحكم وصل خبر، مؤداه أنَّ الطبيب العاشق قد ترك مسكنه وهرب إلى مكان مجهول لم تسفر عنه التحريات التي توصَّلت إلى أنَّه طبيب مزيف فشل كطالب في كلية الطب ولم يكمل دراسته وأنَّه يتنقل من مكان إلى مكان ويعيش من عرق السيدات المخبولات المفتونات عالة على أموالهن ويختار من ضحاياه اللائى يكبرنه سنًا ويبتز أموالهن وأنَّه وجد مقتولاً في شقة في بإحدى المناطق النائية في أطراف القاهرة وأنَّ البحث مازال جاريًا للوصول إلى سر الحادث والقبض على القاتل.

وهمست فى أذن المتهم:

- ها هى السماء قد اقتصَّت لك.

- نظر الرجل إلىَّ من وراء القضبان وقد بانت من قسمات وجهه.. الراحة الممزوجة بالخوف وهو يقول:

- أنا الذى قتلته.

ظننته يمزح.

فقال لى مؤكدًا أنَّه هو القاتل.

فقلت له:

- مستحيل.. لأنك محبوس.

- فأجاب فى ثقة:

- لقد اتفقت مع أحد الأشقياء فى الحبس الاحتياطى وكان بصدد الإفراج عنه.. وأعطيته عنوانه وأوصافه.. وطلبت منه تعقبه وقتله.

- وسألته فى استغراب:

- لماذا لم تقتله قبل حضورك لمنزلى فقد كان أمامك متسع من الوقت.

- قال فى ثقة.

- لقد بحثت عنه فى كل مكان.. ومن حسن حظه فى هذا اليوم أنَّه لم يكن موجودًا.

وقطع حديثى معه صوت الحاجب وهو يعلن عودة المحكمة للنطق بالأحكام.

حكمت المحكمة بحبس المتهم سنة مع الإيقاف عن تهمة قتل زوجته كان قد قضاها فى الحبس الاحتياطى وأوردت فى حكمها ما يؤكد دفاعى من أنَّها طبقت عليه المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات وقاست حالته على حالة التلبس باعتبار أنَّ القياس جائز فى المسائل الجنائية إذا كان لمصلحة المتهم.

ومرَّت الأيام وانقطعت سيرة الرجل وإذا بى وأنا فى طريقى فى أحد شوارع وسط القاهرة إلى مكتبى بصوت يناديني كان شيخًا فانيًا اشتعل رأسه شيبًا وترك الزمن بصماته على وجهه الذى كسته التجاعيد، وقال وهو يحدّثنى من فم يكشف عن لثة تساقطت معظم أسنانها انت موش عارفنى.

فحملقت فى وجهه وكان علىَّ أن أتذكر شخصيته فأحسَّ الرجل بما يعتمل فى فكرى فذكرنى بنفسه.

ودفعنى الفضول فسألته عن الحديث الذى دار بينى وبينه وهو فى قفص الاتهام قبل النطق بالحكم:

فأجاب ضاحكًا:

- انت لسه فاكر.. أنا لا حرّضت على قتله ولا حاجة..
- فسألته مستغربًا عن سر اعترافه السابق لى.
- قال:
- ما دمت مصمم سأقول لك أنا كنت ناوى أعترف بقتله ليه.

- ابنى الكبير لما كان بيزورنى فى السجن كان مصرًا على أن يقتله.. فأنا لما سمعت أنّه اتقتل تبادر إلى ذهنى إنى أعترف عشان أنقذه.. أنا وقتها كنت حاسس بالضياع وقلت مادام أنا ضايع خليها بالمرة.

- فسألته فى لهفة:

- ومن الذى قتله؟

- فأجاب فى نبرة خبيثة .. الله أعلم.. واستطرد ما حدث له كان هو النهاية المنطقية لأمثاله الذين يعيثون في الأرض فسادًا، فقد عثر عليه مقتولاً في شقة متواضعة في حى شعبى كان عاريًا تمامًا بجواره زجاجة من الخمر وبقايا سجائر محشوة بالمخدر الحشيش ولم تتوصل التحريات لمعرفة القاتل لأنَّه كان هدفًا لانتقام كثيرين ممن عبث ودمَّر حياتهم.. وتوقعت التحريات أن يكون القاتل زوجًا أو أبًا أو أخًا أو ابنًا لإحدى ضحاياه.

- ربما اعتقد الرجل أننى لا أصدقه فأقسم وهو يضغط على يدى مودعًا:

- والله كل اللى قلته هو الحقيقة.. أنا طول عمرى باخاف من دم الفرخة وهى بتدبح! مكنتش أتصور أبدًا أنه تجينى الجرأة وأقتل.

- وساقنى الفضول إلى سؤاله:

- إذا ما دمت تخاف من القتل ومن رؤية الدم فلماذا قتلت زوجتك؟

- فضحك ضحكة ملأها الخبث وقال أعتقد أننى لو أقسمت لك أننى

لم أقتلها لن تصدق فأجبته على الفور طبعًا.. لقد عايشت قضيتك وأدلّتها وترافعت فيها وأنا على يقين أنك القاتل فإذا لم تكن أنت فمن القاتل؟

- فازدادت ضحكة السخرية على شفتيه وقال وهو يتفحَّص ملامح الحيرة في عينيه وكأنما يريد أن تزداد حيرة.

- يهمك تعرف بعد كل السنين دى مين اللى قتلها؟

- فأجبته في لهفة أحسَّ بها وبشغف في أن أسمع الإجابة عن هذا السؤال الحائر.

- بنتى هيه اللى قتلتها.. أنا فعلاً كنت جايب التورتة علشان أحتفل بعيد ميلاد بنتى مش عيد ميلاد مراتى وكنت موجود أنا وبنتى وأولادى الاثنين وفعلاً مراتى دخلت الحمام وفى تلك الأثناء بنتى هيه اللى شافت الدبلة وبمجرد ما خرجت هيه اللى واجهتها ادامنا فأصرت على حبها له وطلبت منا أن نتركها لحالها لتعيش حياتها على نحو آثم مشين غير عابئة بكرامة زوجها ولا سمعة أولادها مضحية بكل شىء من أجل علاقة محرمة.. لم تتمالك ابنتى نفسها وأمسكت بالسكين التي أعدت لتقطيع التورتة وأخذت تطعنها في هيستريا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

- واستكمالاً ومواصلة لمسيرة الكفاح والعطاء التي بدأتها طلب من أولادى التوجه فورًا لجدتهم والبقاء معها وأننى سأعترف بقتلها دفاعًا عن شرفى وعن سمعتهم وحفاظًا على مستقبل ابنتى وأغلقت الباب عليها

وانتظرت طيلة اليوم حتى التقيت بك وأحسست عندما سمعت قصتى واعترافى واقتنعت بذلك أحسست بالراحة وبأنَّ هذا السيناريو الذى أعددته سيلقى قبولاً وتصديقًا.

- قال هذه الكلمات ولم أتركه لينصرف من أمامى قبل أن أسأله عن أولاده وعن أحوالهم.

- فأجابنى أنَّه بعد أن خرج من السجن بدأ حياة جديدة تاركًا وراء ظهره الماضى بحلوه ومره، عرض عليه أولاده الزواج ولكنَّه أبى ورفض مكرسًا حياته لهم كأب وأم موفرًا لهم كافة متطلباتهم باذلاً كل ما في وسعه لإرضائهم وسعادتهم..

- ابنته الكبرى أغلقت صفحة الماضى وتزوَّجت عن حب من محاسب وأنجبت منه طفلين عزيزين على قلبه يجد حياته وسعادته ودنياه معهما.

- وابناه أحدهما تخرج فى كلية الهندسة أحبَّ زميلة له في الكلية خطبها وفى سبيله لإتمام شقة الزوجية، وقد اشترى له الشقة التي اختارها هو وخطيبته ودعا لهما بالتوفيق والسعادة التي حرمته الأيام منها، أما ابنه الأصغر فقد اختار كلية الطب وأصرّ عليها وهو في سنته النهائية.

وأنهى الرجل حديثه معى وهو يودعنى برغبته في توجيه سؤال شخصى لى:

عن رأى الشخصى فيما قام به هل أخطأ أم أصاب عندما حمل على عاتقه

عبء الاتهام بقتل زوجته على غير الحقيقة.. وما المصير الـذى كـان سـينتظر الأسرة لو قدَّمت ابنته إلى المحاكمة بتهمة قتل أمها..

ولمح الرجل الحيرة والتردد في الإجابة عن سـؤاله فبـادر بقولـه أنـا الـلى أجاوب عن السؤال..

أكيد حتقول قانونًا غلط.. كان لازم تقول الحقيقة.

إنما أنا بمنطق الأب مصر على إنى اللى عملته هو الصح.

الآباء لازم يضحوا علشان سعادة أولادهـم مهمـا كـان الـثمن ولـو كـان حياتهم وده المعنى الكبير اللى لم تستوعبه الأم..

وانطلق الرجل بعد أن ودَّعنى بحرارة وإجلال.

وبعد عدة أعوام قرأت في الصحف نعيًا يتضـمن وفـاة الرجـل فتوجهـت لتقديم واجب العزاء لأسرته في السرادق المعد لـذلك وعنـدما علمـت ابنتـه بحضورى طلبت لقائى وأفضـت إلىَّ بسـر احـتفظ والـدها بـه وائتمنهـا دون غيرها من إخوتها عليه.

إنَّه هو الذى قتل الطبيب عشيق أمها انتقامًـا لشـرفه وكرامـة أولاده وأنَّـه بالفعل اتفق مع أحد المتهمين الخطرين الذى أمضى مـدة العقوبـة وكـان في سبيله للإفراج عنه أن يقتله نظير مبلغ كبير من المـال وبالفعـل زجَّ في طريقـه إحدى بائعات الهوى التي صاحبته إلى مسكنه وأسكرته حتى الثمالة ثم قامت بقتله وانصرفت ولم تتوصل التحريات إلى معرفة الحقيقـة التـي انتهـت معهـا

النيابة إلى القرار بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية لعدم معرفة الفاعل.

وأن والدها كان صادقًا عندما أخبرك بقاعة المحكمة أنَّه هو القاتل لاعتقاده أنَّ ابنه الأكبر هو الذى قتله لأنَّه كان يبحث عنه يريد قتله وعدل عن ذلك عندما أخبره زميله السابق في السجن أنَّه نفذ الجريمة بلا دليل.. وأضافت أنَّها تعتقد أنَّ سر ما كان ينوى والدها الإقدام عليه وهو الاعتراف بقتل الطبيب المزيف ليفتدى ابنه إذا ما وجه إليه أي اتهام، وهو ذات موقف التضحية يوم أن افتداها وقدَّم نفسه قربانًا للعدالة بدلاً منها.

وانصرفت بعد العزاء.. وقد عمَّق حديثها في نفسى إحساسًا أؤمن به عن قناعة أنَّ الإنسان لا يولد مع الجريمة ولكن المجتمع الذى يدفعه إليها.